التداولية اللسانية

الطاهر لوصيف

يعتبر مفهوم التداولية اللسانية من أهم المفاهيم الحديثة التي شدت انتباه الدارسين والباحثين لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة(1)، وعليه يصير من الحتمي الوقوف في هذه العجالة بين يدي موضوعات هذا العدد على الناحيتين المفهومية والتاريخية للمصطلح .

1 - عرف مصطلح التداولية : pragmatique مدلولات عديدة تقلب بينها منذ ظهوره لأول مرة، فقد ظهر مصطلح pragmatique انطلاقا من الأصل اليوناني " pragma " الذي يعني : العمل action ومنه اشتقت الصفة اليونانية : pragmatikos الذي يحيل على كل ما يتعلق بمعاني العمل: action .

وقد استعمل المصطلح بعد ذلك لأول مرة في القرون الوسطى في فرنسا، في مجال الدراسات القانونية في عبارات مثل: pragmatique sanction ، pragmatica sanctio.

وابتداء من القرن 17 م انتقل الاستعمال إلى الميدان العلمـــي فـــصارت: "Pragmatique " تعني كل بحث أو اكتشاف من شأنه أن يعرف أو يفضي إلى تطبيقات ذات ثمار عملية .

وفي الوقت الحالي شاع المصطلح في الاستعمال الجاري فصار يدرج فـــي عبارات مثل :

C'est un esprit pragmatique و c'est un pragmatique

وذلك لوصف شخص ما له القدرة على إيجاد حلول عملية وحقيقية لمشكل ما

هذا وتجدر الإشارة إلى أن استعمال المصطلح المـــدروس فـــي المجـــال الفلسفي، إنما هو لوصف كل فكرة أو ظاهرة لا تتجلى إلاّ من خلال تطبيقاتها العملية أي نتائجها وآثارها المنعكسة على الواقع(2).

و يقـــول إلـــوار " R.ELUERD" إن مقتـــضى "pragmatime" هـــو التجريب والاختبار أي: " Empirisme" ، حيث تختبر حقيقة قانون أو قاعدة ما من خلال نتائج تطبيقاتها العملية.

كما تختبر حقيقة سلوك ما من خلال المحاسن التي تنتج عنه، ومن بـــين الذين يرون هذا الرأي" جيمس " w. James " (1848-1901)(3) و من المتعارف عليه أن هذا المفهوم يعني في مجال الدراسات الفلسفية ما يعـــرف بالذرائعية.

بعد هذا العرض العام للمصطلح فإنه يتوجـــب أن نعـــرف بمعنـــاه فـــي الدراسات اللسانية. وعليه فإن التطور المفهومي لهذا المصطلح قد نحا نحـــو الدراسات اللسانية وأخذ يرسم مجاله من خلال جملة من الشروط :

- **الشرط الأول**: إن التخوف من الإغراق في الوصف النظري ومحاولة البعد عنه هو في حد ذاته سمة للتحليل الذي يطمح إلـــى أن يكـــون " عمليـــا أي براغماتيا"

- **الشرط الثاني**: إن الأخذ في الاعتبار للمعطيـــات أو الحقـــائق الأساســـية والأكثر تمثيلا لواقع التبليغ تعتبر هي الحتمية المطلقة المنشودة .

- **الشرط الثالث** : ضرورة أن تبعد كل تلك المجهودات والدراسات النظرية التحليلية- وبدون توان- على الثنائية الوهمية المتمثلة في:

الفائدة الموجودة أو المبرر النظري الذي يهدف إلى محاولة شق طريق أصيل ومتفرد هو الأمر الذي قد ينحو نحو الاغراق في النظرية والمثالية (الشرطان الأول والثاني أعلاه)(4).

3- هذا ويرجع أول استعمال لمصطلح pragmatique linguistique إلى الفيلسوف الأمريكي charles w. morris المولود عام 1901 ويقصد به كل ما يتعلق بمظاهر استعمال اللغة وخصائصه – المظهر التداولي- أي الحوافز النفسية للمتكلمين وكذا النماذج الاجتماعية وموضوع الخطاب وغير ذلك. وذلك في مقابل المظهر التركيبي الذي يعني بالعلاقات التركيبية الشكلية، والمظهر الدلالي الذي يعني بالعلاقات القائمة بين مدلول الوحدات اللغوية والواقع(5).

وتجدر الإشارة إلى أن نجاح أعمال موريس في الميدان اللساني أحدثت صدى تمثل خصوصًا في المظاهر الثلاثة السابقة: التركيبي والدلالي والتداولي، هذا الأخير الذي ربما شمل المظهرين السابقين ووسعهما. ولذلك قدم كل من (F.licanati) و (A.M.Diller) تعريفا للتداولية جاء فيه: إن التداولية تدرس استعمال اللغة من خلال عملية الكلام والسمات المميزة التي يتميز بها النظام اللغوي والتي تظهر قدرتها (أهميتها) الحديثية "(6).

4- ويقول " الوار " R. ELUERD بخصوص .تاريخ ظهور التداولية كعلم، إذا كانت مقابلة التواريخ يمكن أن تعطي بعض المصداقية للفكرة التي تذهب إلى أن النحو التداولي لتشومسكي (المولود بتاريخ 1928) يوالي البنوية المستوحاة من أعمال دوسوسير (1857-1913)، فإن هذا الرأي نفسه يحتاج إلى من يدعم الرأي الآخر القائل بأن آخر سليل (خلف) لعلم اللسان يسمى "pragmatique " وفي الواقع فإن للـ pragmatique العمر نفسه لعلم اللسان، وفي اللغة العربية، فإن أول من اقترح مصطلح " التداولية" كمقابل لـ pragmatique هو الأستاذ طه عبد الرحمن(7) و قد تبناه الأستاذ أحمد المتوكل(8) واستعمله فلقي استحسان المختصين الذين تداولوه في محاضراتهم وكتاباتهم(9).

و تجدر الإشارة إلى أن الأستاذ الدكتور عبد الـــرحمن الحـــاج صـــالح استعمل مصطلح الاستعمال كمقابل للـــ : pragmatique "

5- وبالنسبة للدراسات اللغوية العربية فإن البحث في التداولية كموضـــوع ناضج لم يعثر عليه في الدراسات اللغوية سواء التراثية أو الحديثة لكن هناك كثيرًا من المصادر العربية التي تناولت مادة تعتبر مـــن صـــميم الدراســـات التداولية، إن لم نقل إنها ربما تتجاوز ما تطرحه الدراسات النظرية التداولية الحديثة في الغرب، ودون توسع فإنه يمكن ذكر المصادر الآتية على ســـبيل الذكر لا الحصر- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، والبيـــان والتبيـــين للجاحظ، والخصائص لابن جني والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي وهو من أهمها، والكشاف للزمخشري ومفتاح العلوم للسكاكي، والإيضاح في تلخيص المفتاح للقزويني، وبصفة خاصة كتب الأصول ومنها على الأخص أصـــول السرخسي والرسالة للشافعي .

فهذه المصادر قد تناولت عددًا من المسائل التداولية ذات الأهمية الكبيرة، وليس أدل عليها من تناولها لقضية " المقام" situation و مقتـــضى الحـــال والمطابقة " appropriation "، و الـــسياق contexte بوجهيـــه الحـــالي situationnel واللفظي verbale ، وعادات الناس في كلامها، وخصائص الاستعمال اللغوي وقواعد الاستعمال اللغوي لـــدى المتكلمـــين les règles d'utilisation . و التأويل وما إلى ذلك من القضايا التداولية الهامة.

فهذه الأبعاد التداولية للدراسات اللغوية العربية ربما تكون لنا عودة إليهـــا في مناسبة علمية قادمة إن شاء الله .

الهوامش:

1- أي منذ الثمانينات من القرن 20، انظر مقال الأستاذة خولة طالب الإبراهيمي : عـن التداولية ، مجلة اللغة والأدب ، قسم اللغة العربية وآدابها) جامعة الجزائر العـدد 16 ص115-128.

2- انظر جان مشال في كتابه: la pragmatique outils pour l'analyse littéraire، نشر: armand colin باريس: 1998 ، ص 4 المقدمة .

3- انظـر R.ELUERD فـي كتابـه la pragmatique linguistique نـشر Nathan: باريس . 1985، ص:4 .

4- السابق، ص 05 .

5- أنظـر 1 . Dictionnaire encyclopédique du science du langage نشر: Dubois et al ، Larousse ، 1973.

6- أنظر : R. ELUERD ، ص 06.

7- وهو من المغرب، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد الخامس، بالرباط.

8- من المغرب. كلية الآداب واللغات- جامعة محمد الخامس – بالرباط.

9- أنظر مقال الأستاذة خولة طالب الإبراهيمي السابق .